ابن حزم الأندلسي

مجموعة من المواهب والعبقريات

للأستاذ قدري حافظ طوقان

ابن حزم مجموعة من المواهب والعبقريات؛ وزير وابن وزير، ومن أصحاب الجاه الواسع العريض. هذا في ميدان الحياة العامة. أما في المعارف والعلوم فهو فيلسوف لمع في الدين والشعر والأدب والتاريخ

نشأ في قرطبة في القرن الحادي عشر للميلاد من أسرة قال عنها الفتح بن خاقان: «بنو حزم فتية علم وأدب، وثنية مجد وحسب». وهو من بيت عريق بالمجد حافل بالترف والنعيم. لكن ذلك لم يدم، فقد تنكر له الزمان، وتعرض للنكبات والمصائب، وأصابه الاعتقال والتغريب والإغرام الفادح. لحقه الأذى والكيد من كل جانب، ولم ينعم بالاستقرار والاطمئنان.

انصرف ابن حزم إلى العلم بكل عزائمه، وأخلص له ولم يخلط به مأرباً آخر. وهذا ما يميزه من كثير من الذين يعنون بالعلم والأدب؛ ولم يقف عند هذا الحد، بل «تفرغ لنشره بين الناس فنفع به خلقاً كثيراً»؛ ذلك لأنه كان يؤمن بأن للعلم زكاة هي نشره وإذاعته.

نشأ في بداية أمره في جو ساعد على بروز مزاياه النفسية والفكرية، فظهرت عبقريته متعددة النواحي، وتعمق في البحث والتنقيب فكان المرجع لأعيان الفكر في زمانه والأزمان التي تلت، ومصدراً من المصادر المعتمد عليها التي يستشهد بها رجال الدين والعلماء.

وقد اعترف بفضله وعلمه الأقدمون والمحدثون، فقال عنه أفاضل القدماء: «... ابن حزم حامل فنون من حديث وفقه وجدل وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديم من المنطق والفلسفة ...»؛ وقال الذهبي: «ابن حزم رجل من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد كاملة»؛ وقال ساعد: «برز ابن حزم على فحول العلماء بالأندلس حتى تفرد دونهم بميزات»؛ وشهد الغزالي بفضله: «وعظم حفظه وسيلان ذهنه». ولقد درس بعض تآليفه المستشرقون ورجال التاريخ في أوربا وأمريكا، فأنصفوه بعض الإنصاف واعترفوا بأثره في الفقه والعلوم. قال رينيه باتسيه: «ابن حزم عالم عربي أندلسي، متفنن في علوم جمة، وهو فقيه مشهور ومؤرخ وشاعر مبرز، دقيق الملاحظة، شيق الأسلوب».

وتناول آراءه جولد زيهر وشريتر وإسرائيل فرد ليندر ونيكل وبتروف، فشرحوها وعلقوا عليها وأبانوا أثره في الفقه والمنطق والتاريخ. ويعترف سارطون في كتابه مقدمة لتاريخ العلم بفضل ابن حزم وعلمه فيقول: «ابن حزم أعظم عالم في الأندلس، ومن أكبر المفكرين المبتكرين المسلمين فيها».

ترك ابن حزم مؤلفات ضخمة تدل على سعة اطلاعه وغزير علمه وعظيم أدبه؛ وقد «ملأ الغرب بعلمه وكتبه ومذهبه، وشغل أهله طرقاً سالماً من حياته أحقاباً طوالا، حتى لكأنه أمة وحده لا فرد من أمة»؛ اعتز به الأندلس وباهى بفضله العراق الذي كان يومئذ يموج بحضارة ما رأى التاريخ لها مثيلاً.

ويتجلى من كتبه ورسائله أنه كان يتمتع بفكر ثاقب وبصيرة نافذة وملاحظة دقيقة؛ فهم الشريعة حق الفهم وأفهمها بإخلاص وصدق للناس. وكان صريحاً ومخلصاً للحق إلى أبعد الحدود؛ وقد ضاق علماء عصره وحكامه بصراحته وإخلاصه، فأشهروا عليه الحرب العوان، فأحرقوا كتبه واضطهدوه شر اضطهاد، وصبوا عليه النكبات والمتاعب. ويمكن القول إنه «ملأ

الأندلس حركة فكرية عنيفة آثارها سلبية وإيجابية ، وجعل مجالس العلم وأنطاب الفكر مسكرين أنصاراً وخصوماً » .

ولسنا بحاجة إلى القول بأن حيوية ابن حزم لم تنقطع بموته ، بل أودعها كتبه وتآليفه فاستمرت تعمل عملها زمناً طويلاً . وإن المتصفح لأدبه وأسلوبه يجد أن فيهما ثورة على التقليد ، فلم يتقيد بأسلوب من تقدموه ، ولم يلتمس في أدبه طريقهم ، وهو يقول في هذا الشأن : « وما مذهبي أن أنضى مطية سواي ، ولا أتحلى بحلى مستعار » . وهذا (كما يقول الأستاذ سعيد الأفغاني) : « السر في تأثير بلاغته وأخذها بمجامع القلوب ، ونفاذها إلى أعماق النفوس » . ولهذا لا عجب إذا امتاز بأسلوب خاص ، وأدب له لونه الخاص ، وقد حلق به عالياً فجعله « أديباً عالياً سبق عصره قروناً عديدة » .

وابن حزم صاحب رأي مستقل يأخذ بالعقل ويخالف بالعقل ، لهذا تراه حارب الخرافات وهاجمها بشدة ، حتى إنه استعمل ألفاظاً نابية لا يليق بمثله أن يأتي بها مما يعطي فكرة عن شدة مَلَله من الأخذ بالأوهام والاعتقاد بالخرافات . كان يدعو إلى الأخذ بالعلم الصحيح والاعتماد على العقل ، يتجلى ذلك في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) بشأن النجوم وأثرها في الناس وهل تعقل ؟ قال ابن حزم : « زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل وأنها ترى وتسمع ... وهذه دعوى بلا برهان . وصحة الحكم بأن النجوم لا تعقل أصلاً ، وأن حركتها أبداً على رتبة واحدة لا تتبدل عنها . وهذه صفة الجماد المدبر الذي لا اختيار له . وليس للنجوم تأثير في أعمالنا ، ولا لها عقل تدبرنا به إلا إذا كان المقصود أنها تدبرنا طبيعياً كتدبير الغذاء لنا ، وكتدبير الماء والهواء ونحو أثرها في المد والجزر ، وكتأثير الشمس في حمى الحر ، وتصعيد الرطوبات (التبخير) . والنجوم لا تدل على الحوادث المقبلة » .

ومن هذه الآراء يتضح أن ابن حزم لا يأخذ رأياً إلا بعد أن يمحصه ويساط عليه العقل والبرهان ، فإن أجازه العقل وأمكن البرهنة عليه أخذ به ، وإلا فهو غير مقبول لديه .

وخالف ابن حزم الأقوال التي تشير إلى أن النيل وجيحون ودجلة والفرات تنبع من الجنة ، وتهكم على قائليها . وبعد أن فند هذه الأقوال بين أن لهذه الأنهار منابع معروفة في الأرض على ما هو موضح في كتب الجغرافيا .

ولابن حزم آراء علمية ونظريات فلسفية « هي في الطبقة الأولى من القيمة الذاتية الحقيقية » كما يقول الدكتور عمر فروخ .

ومن هذه النظريات الجديرة بالذكر والاعتبار نظرية المعرفة ، وقد عقد لها فصلاً خاصاً في كتابه : (الفصل في الملل والأهواء والنحل) . وتتركز الأسئلة في هذه النظرية على ما يلي :

كيف تعرف الأشياء ؟ وما تعرف عنها ؟ وما الدليل على صحة المعرفة ؟ ولقد بحث في هذه النظرية اليونان ، لكن بحثهم لم يكن من العمق والسعة بحيث يجعلها كاملة ، إلى أن جاء الفيلسوف الألماني (كانت Kant) في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد ، فبحثها بحثاً وافياً شاملاً جعل مؤرخي الفلسفة الأوروبية يقولون : إن الفضل في إيجاد نظرية المعرفة وفي شرحها ، يعود أولاً إلى كانت .

ولكن الدكتور عمر فروخ في كتابه عبقرية العرب درس الآراء التي وردت في كتاب ابن حزم وقارنها بما قاله (كانت) فتبين له أن نظرية المعرفة قد عرضت لابن حزم قبل (كانت) بسبعة قرون ونصف قرن .

يرى ابن حزم أن المعرفة تكون (١) بشهادة الحواس — أي بالاختبار لما تقع عليه الحواس ، (٢) بأول العقل — أي بالضرورة وبالعقل من غير حاجة إلى استعمال الحواس الخمس ، (٣) ببرهان راجع من قرب أو من بعد إلى شهادة الحواس وأول العقل .

ويرى ابن حزم أن الغرض من الفلسفة والشريعة يجب أن يكون إصلاح النفس حتى تستعمل (النفس) الفضائل وتكون في دائرة السيرة الحسنة المؤدية إلى السلامة في المعاد وحسن السياسة للمنزل والرعية جاء في كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) ما يلي : « الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها ، والغرض المقصود نحوه بتعلمها ، ليس هو شيئاً غير إصلاح النفس بأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها

في المعاد وحسن سياستها للمنزل والرعية . وهذا نفسه ، لا غيره ، هو الغرض من الشريعة . هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء في الفلسفة ، ولا بين أحد من العلماء في الشريعة .. »

وابن حزم من المتقدمين في الظاهرية والمتحمسين لها . ومذهب الظاهرية هو مذهب الجماعة الذين يقبلون ما جاءت به الآيات الكريمة والأخبار الموثوقة من الحديث والسنة ، ولا يتأولون شيئاً على ما لم تجر به سنة العرب في فهم لغتهم . وقد وضع في الظاهرية تآليف قيمة تعرض فيها لمسائل فقهية ومشاكل دينية وكان فيها مبتكراً ، إذ طبّق الأصول الظاهرية على المعائد . ومن آرائه التي أودعها كتبه يتبين أنه كان من الذين (انتقضوا على التوسل بالأولياء مذاهب الصوفية وأصحاب التنجيم) . كان يميل إلى المناظرة والهجوم على خصومه والذين يخالفون في آرائه ، لكنه كان يتوخى دائماً إنصاف الخصوم ويتجنب التضليل واختلاق التهم .

ولابن حزم رسالة لطيفة قيمة هي رسالة في الفاضلة بين الصحابة ، شرح فيها مذهبه في الفاضلة سالكا طريقاً منطقية محكمة . ولقد أحسن الأستاذ سعيد الأفغاني في نشرها ، فقدم بذلك خدمة علمية جليلة يشكر عليها أجزل الشكر .

وفي هذه الرسالة النفيسة كان ابن حزم مبتكراً في الطريقة التي اتبعها في ترتيب موضوعاتها . وكانت على النمط الآتي : تقرير للأسس ثم بسط الدعوى ، ثم استعراض آراء الخصوم وشبههم وأخيراً دفع للشبه وبرهان للدعوى ؛ وهي كما يقول الأستاذ الأفغاني « طريقة محكمة كاملة » تلم الحوار المضبوط ، والمناقشة الدقيقة ، والجدل الصحيح القوي ، وفوق ذلك ، فقد دلت هذه الرسالة على « براعة في تحليل النصوص وجودة الاستنباط ، ودقة الفهم لها ... »

يرى ابن حزم في هذه الرسالة أن العامل يفضل العامل في عمله بسبعة أوجه لا ثامن لها وهي : الماهية وهي عين الفعل وذاته والكمية وهي العرض في العمل والكيف والكم والزمان والمكان والإضافة . ثم يشرح كلاً من هذه الأوجه في قالب جذاب يستهوي القارئ وبأسلوب سهل فيه ابتكار وفيه إحكام ومنطق .

والآن لا يتسع المجال لشرح آرائه ونظرياته ، ولكن يمكن القول أنه ترك تراثاً ضخماً لم يصل إلينا منه إلا القليل ، وهي تبحث في الفقه والأدب والأخلاق والفلسفة وأخلاق النفس والأصول ، والامامة والسياسة والمنطق والإيمان والفرق الإسلامية والاجماع والتاريخ . ولعل أشهرها كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل ، وكتاب طوق الحمامة ، ورسالة الفاضلة وقد مر ذكرها .

وهذه كلها تدل على علم واسع وعقل حصيف وفكر خصيب وإنه كما يقول الأستاذ الأفغاني « أحدّ ذهنية انبثقت منها الأندلس في جميع عصورها » وهو يمثل العبقرية الأندلسية أروع تمثيل . وقد سما نبوغه وارتفع درجات جعلت المؤرخين والباحثين يعتبرونه من المتقدمين في تاريخ تقدم الفكر والعلم ومن أعلام العلماء الخالدين ...

قدري حافظ طوقان

اطلب للاستاذ محمود الخفيف

١ ـ أحمد عرابي

ثمنه ٥٠ قرش

٢ ـ ابراهام لنكولن

ثمنه ٣٥ قرش

٣ ـ من وراء المنظار

ثمنه ٢٠ قرش

٤ ـ تولستوي

ثمنه ٤٠ قرش